الدكتور كامل أبو جابر

مقالات

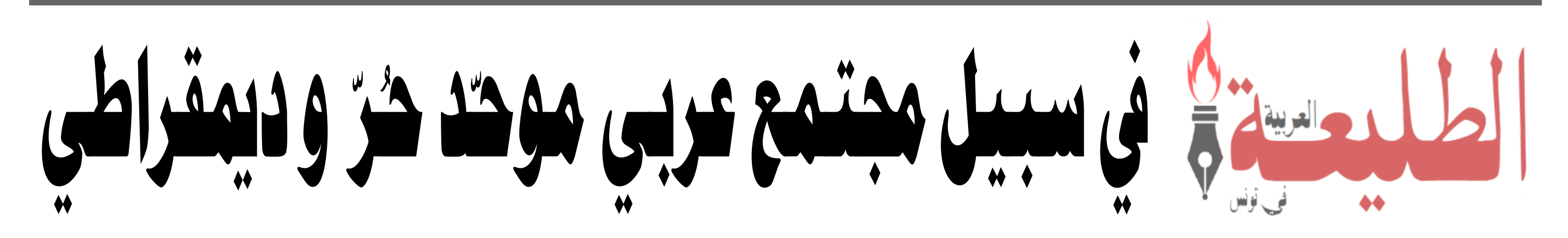
حول الوضع العربي الرّاهن





منشورات الطليعة

تونس 2011





بقلم الدكتور
كامل أبو جابر

في الهزيمة وإسرائيل

تنهزم الأمم حين تنهزم قيمها الروحية والسياسية والاجتماعية فتصبح حينئذ فريسة سهلة لجيوش وقيم المنتصر، والتاريخ خير دليل على هذه الحقيقة وخير مثال لها حين تمكن المعسكر الغربي بقيادة اميركا من احلال قيمه بدلاً من تلك التي كانت قائمة في اليابان والمانيا وايطاليا في اعقاب الحرب العالمية الثانية، ومرة اخرى حين انهارت قوى اليسار في الاتحاد السوفياتي ودول اوروبا الشرقية في العِقد التاسع من القرن العشرين.

في الحالة الاولى لم تستسلم جيوش هذه الدول وقياداتها السياسية وحسب بل ونخبها وجماهيرها السياسية والاجتماعية التي اعترفت بالافلاس التام لقيمها العسكرية الفاشية والنازية التي كانت تمجد حالة العدم وبربرية العدوان وقيم الموت

والدمار، استسلمت حتى ذات الفرد في هذه البلدان لانعدام الانسانية ولاستمرار العنف والقهر المرتكز الى بربرية العنصرية والاستعلاء والاستكبار على الآخر وسلبه لانسانيته بحجة سمو عنصر على اخر.

عقائد ايقظت الوحش الكامن في النفس البشرية التي حاولت الاديان والعقائد الانسانية تمدينه وتحضيره على مدى الزمن، وحشية كامنة في الذات اشار لها المعلم الاول ارسطو طاليس حين اكد ان الانسان"حيوان اجتماعي".

الهزيمة العسكرية والقيمية المدمرة قضت على الهستيريا الجماعية التي ألمت بهذه الشعوب التي كانت عريقة في تاريخها الحضاري وتقدماتها الانسانية. لم تمض سوى فترة خمسة عقود بالتمام حتى تمت هزيمة القيم الشيوعية التي كانت تركز جل اهتمامها على المادية وحاربت بقوة وبشراسة النواحي الروحية باصرارها ان "الدين افيون الجماهير"، لابد من التصدي له ومحاربته.

اسوق كل هذا لالفت انتباه قادة الغرب والصهيونية العالمية التي تلعب دورا اساسيا في توجيه سياساتهم ان هذا ليس حالنا واذ نعترف بحقيقة اننا خسرنا عددا من المعارك الا اننا ما زلنا على ارضنا من جهة وان قيمنا والحمد الله لم تتبدل ولم تنهزم لا بل تزداد مناعة وأنفة.

صحيح اننا خسرنا عددا من المعارك على مدى تاريخنا الحديث ولكن الصراع المفروض علينا مستمر، واذ نمد يد المصالحة نمدها من منطق الثقة بالنفس وان الصلح بالفعل سيد الاحكام وبالذات اننا لا ننكر لا انسانية الانسان الغربي ولا اليهودي ونفتخر ان حضارتنا العربية الاسلامية التعددية الرائعة احتوت اليهود والدروز ومختلف المِلل والنِحل في اجواء سلام، اجتماعي عز نظيره حتى في حضارة الغرب.

اساءت تيريزا مي، التي تفتخر بوعد بلفور ام غير ذلك، ولو اعترف ظلما وعدوانا واعتداءً على مفاهيم العدل والقانون الدولي والانساني الرئيس ترمب بالقدس كما اعترف، فستبقى القدس ارضا عربية داستها اقدام السيد المسيح عليه السلام وباركتها اطلالة واسراء الرسول صلوات االله وسلامه ورضوانه عليه.

لم اقابل فرداً عربياً واحداً لا اردنيا ولا غيره ولا فلسطينيا حتى اولئك الذين يعانون مرارة واضطهاد وقهرالاحتلال الصهيوني يعترف بالهزيمة واذا كان هناك من هزيمة فهي هزائم الانظمة العربية اما هو فلم ينهزم ولم تنهزم قيمه بل تزداد مناعة فيرفض الانسان العربي اللجوء الى ما لجأت اليه البربرية الفاشية او النازية او الصهيونية.

نحن ابناء اسماعيل ابن ابراهيم خليل االله، نرفضاللجوء الى ما لجأت اليه شعوب اخرى وهو امر لا بد لنا من التفاكر فيه اذ يشكل مشكلة مع الصهيونية المستشرية لا في اسرائيل وحسب بل ولدى قطاعات واسعة من القيادات والشعوب الغربية حتى انها اصبحت تنافح وتدافع عن جميع ما تفعله اسرائيل ويعتبرونها تسمو على اي قانون وضعي او اخلاقي او انساني مستندين بذلك الى اساطير توراتية يعود منشأها الى تيه صحراء سيناء.

ما زلنا غير قادرين على توجيه ضربة موجعة قد تقود الى صحوة الاسرائيليين من نشوة الهستيريا الجماعية، كما حدث لشعوب دول المحور في النصف الاول من القرن الماضي، مثل هذه الصحوة ضرورة ملحة ليس لهم وحسب بل ولنا ولمستقبل العالم اذ تمكنت الصهيونية من التغلغل جوف حضارة الغرب وافقدتها جل قيمها الانسانية الراهنة، ففي صحوة اسرائيل صحوة واعادة لقيم الانسانية الى جميع دول الغرب دون استثناء.

أؤكد ان الانسان الغربي لا يعترف بالهزيمة بل يشير الى فارق اساسي ما بين القدرية والانهزامية، القدرية هي قبول الانسان بما هو مكتوب ومقسوم له في لحظة ما من لحظات حياته قد تتبدل بجهد من العبد او بارادة خالقه فللعبد دور مهم يلعبه اما الانهزامية فهي الاستسلام لاملاءات وشروط تتضمن معاني الضعف والذل وفقدان معاني كثيرة من معاني الانسانية وهذا

امر ترفضه كل نفس عربية لاعلى الاسوار التي اقامتها اسرائيل/الغرب على غزة وفلسطين بل وفي كل شبر من الارض العربية.

علينا ان نستمر فيما نحن فيه من التمسك بقيمنا الانسانية التعددية الرائعة، التي لا بد وان تقود الى عودة قيم الانسانية الى الحضارة الغربية واذ صحيح اننا والغرب نمر بفترة مظلمة لكن صحيح كذلك ان هناك في الغرب واميركا وحتى بين اليهود من يقاومون الانجرار نحو اللجوء الى المزيد من العنصرية والغطرسة والنازية الجديدة التي ترفض وتقصي الاخر والتي وجدوا لها غطاءً بتسميتها بالنزعة الشعبوية.

تتباكى الدول الغربية وتتذمر وتجتمع لتقرر ما الذي يتوجب عليها ان تفعله لتقاوم موجات الهجرة الى بلدانها وتنسى تاريخ الاستعمار المظلم على مدى القرون الخمسة الاخيرة التي نهبت بها ثروات العالم الثالث واستعبدت شعوبه وتتناسى الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وتبرر قسوته وبربريته المستمرة، كما وتتناسى من الذي دمر العراق ويعمل منذ عقد من الزمن على تدمير سوريا ومن المسؤول الحقيقي عن لجوء اهل هذه البلدان الى دولهم تنهزم الامة العربية وان تخاذلت بعض قياداتها اما الامة فتقول انها باقية وان هذه الحملة الصليبية الحديثة ستزول كما زالت الحملات السابقة وانها من منطق الثقة بالنفس ما زالت تمد يد المصالحة الى اليهود وحسب بل وللعالم ككل ولعل هذا الموقف النبيل يعيد بعض الانسانية ويقضي على هستيريا العنصرية الجماعية المستشرية في عالم اسرائيل/الغرب.

خواطر حول حال العرب وإسرائيل

حتى نهاية السبعينيات من القرن الماضي كنا نخاطب العالم والغرب ونقول ان مشكلتنا الرئيسية والوحيدة التي تمنعنا من استئناف رسالتنا السلمية التاريخية هي قيام دولة اسرائيل. كنا نقول اننا امة عربية واحدة بعقيدة ولغة واحدة وتاريخ مشترك وتطلعات نحو مستقبل حضاري إنساني.

هذا ما كنا نقوله، اما اسرائيل فكانت تخاطب العالم والغرب بالتحديد وتقول انها ليست المشكلة الحقيقية للعرب وان المجتمع العربي المشرقي يزخر بالقضايا والتناحر والعداوات العقائدية والقومية والمالية وغيرها وان الزمن كفيل باثبات ذلك.. فالفتن كامنة كالجمر تحت الرماد: قومية وطائفية ودينية ولغوية وغير ذلك وانها ستبرهن للعالم ذلك مستقبلاً.

لو كنت مؤرخاً لتاريخ منطقتنا منذ نهاية الحرب العالمية الاولى والى يومنا هذا، واكتب من منظور القرن السادس والعشرين، لأكدت ان كلا الخطابين العربي والصهيوني كانا على حق حيث لا بد من التأكيد ان اسرائيل والصهيونية كانت وستبقى التحدي الرئيسي للعرب وقوميتهم ووجودهم وهو امر انتبه له الكاتب الفلسطيني نجيب عازوري عام 1904 حين اكد ان مصير العرب ووجودهم مرتبط بالاطماع الصهيونية ومصير ارضفلسطين. ولكن لا بد من التأكيد كذلك ان الخطاب الصهيوني للغرب تحديدا ان الوطن العربي يعج ويزخر بالقضايا والاسئلة والمشاكل والفتن وأن الزمن وحده كفيل بإثبات ذلك كان خطابا صحيحا كذلك.

اما الفرق بيننا وبينهم فكأنهم يقرأون ويكتبون ويبحثون ويدققون ويدرسون ويتناقشون ويفهمون بعضهم البعض، وبالطبع يصلون الى نتائج يستمع قادتهم لأصوات شعوبهم والى مثقفيهم. اما نحن...؟

تجد عندهم نقاش صحي وجدال حول الامور الحياتية السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلاف ما هو موجود في معظم مجتمعاتنا العربية التي لا رأي فيها الا لرأس الدولة الذي لا تنضب حكمته اذ هو الموجه والراعي والاداري.

درسوا وما زالت مراكز البحوث عندهم تدرس تركيبة مجتمعاتنا العربية بحثاً عن مكامن الضعف او المداخل التي تمكنهم من التغلغل جوفها لتفجرها من الداخل. وجدوا ان نظام المِلل والنِحل الذي وصلنا عبر الامبراطورية العثمانية والذي هو من اروع سمات الحضارة العربية الاسلامية الذي سمح ببقاء «الآخر» وبالعيش المشترك وقبول الآخر للآخر بسلام، سهل الاختراق لمن يرغب ايقاظ الفتن وتغذية النعرات الطائفية حتى داخل الدين الواحد. وجدوا القبلية والقومية والجهوية والطائفية وهو ما سهل اختراق لبنان والعراق وسوريا واليمن وليبيا وحتى مصر.

ما ان انتهت حرب 1967 التي تلتها حرب 1973 بما انتهت اليه هذه الحروب والتي هي من منظور التاريخ ما هي الا حرب واحدة بدأت عام 1967 تلتها هدنة ست سنوات تبعتها حرب رمضان لفتح قناة السويس حتى اخذ العقل الصهيوني يعمل بعمق وجدية ليثبت لعالم الغرب انهم ليسوا مشكلة العرب الوحيدة او الرئيسة.

كان للانتصار الكبير لحرب الست سنوات 1973 – 1967 آثار عميقة على النفسية والسيكولوجية الصهيونية لم يتوقعها حتى علماؤهم آنذاك. وقادت نشوة الانتصار الى نوع من الاغتراب عن الواقع وكأنما اكدت لإنسانهم انهم فعلا امة منتقاة وانهم شعب االله المختار وان اسرائيل بلد الانسان الخارق السوبرمان الذيلا يقهر: احساس يشابه الى حد كبير حال الهستيريا الجماعية التي اصابت الشعبين الالماني والايطالي قبيل الحرب العالمية الثانية. والا فكيف لنا ان نفسر تصرف هذين الشعبين الوحشي وشبه البربري الذي لا علاقة له بتاريخهم المجيد في حقول الادب والفن والموسيقى والتقدمية الحقيقية لتطور الانسانية، مقابل الاحساس بالعظمة ونشوة الانتصار خيمت على العالم العربي سحابة سوداء ما زالت تزداد ظلاما وظلامية كل يوم اذ فقدت معظم الانظمة العربية الثقة بنفسها واخذت تتصرف على الشاكلة التي اوصلتنا الى الحال الذي نحن فيه.

وفي نشوة الانتصار كررت رئيسة وزراء اسرائيل مقولة «اين هم اهل فلسطين؟.. لا يوجد فلسطينيون» ويقول مناحيم بيغن بعد ذلك ان العرب حيوانات تسير على قدمين وتتالت عشرات التصريحات العنصرية من دايان وباراك واولمرت ونتانياهو وغيرهم من القادة الاسرائيليين.

من هذا المنظور المنسلخ عن الواقع بدأ بعض ساستهم ومفكريهم وصانعي قرارهم البحث عن مكامن الضعف في مجتمعاتنا العربية لتفتيتها، انتبهوا مثلا الى فردانية الانسان العربي التي تصل حد الانانية المتوحشة فيقول احد قياداتهم المدعو رفائيل ايتان الذي كان في اعقاب حربي 1967 و1973 رئيسا لاركان الجيش الاسرائيلي ان العرب «كالصراصير» لا بد من التضييق عليهم وحشرهم في زجاجة ليتدافعوا للخروج من عنقها فيقتل بعضهم البعض الاخر في محاولتهم الخروج منها، وتقول احدى الدراسات التي نشرت في اسرائيل ان العنصرية هناك تزداد على ما يبدو من سنة الى اخرى حيث تم نشر حوالي 280ر000 عبارة عنصرية ضد العرب على قنوات التواصل الاجتماعي سنة 2015 ارتفعت الى 675ر000 عبارة عنصرية سنة 2016.

ويقوم احد موظفي وزارة الخارجية الاسرائيلية عودد يينون سنة 1981 بنشر دراسة عن ضرورة تفتيت دول العالم العربي الى دويلات صغيرة لتبقى اسرائيل الدولة الكبيرة المهيمنة على المنطقة وهي السنة التي تم فيها عقد حلف استراتيجي مع الولايات المتحدة الاميركية يزداد متانة وعمقا مع مرور الزمن، وهي السنة التي قامت بها الحرب الايرانية العراقية التي لم تضع اوزارها بعد.

قبل حرب السنوات الست 1973–1967 كانت اسرائيل تتظاهر بانها تريد السلام فكان العرب يمانعون وبعد تلك الحرب التي كشفت ابعاد الوهن العربي وارتدادالعرب على العرب يقوم العرب باطلاق مبادرات الصلح واسرائيل ترفض، نحن نعتمد على غيرنا وعلى ما يسمى بالقانون الدولي وهم يعتمدون على القوة وخلق الحقائق على الارض.

لا ادري كيف سينتهي الامر في العراق فهل ستبقى موحدة وكذا الامر في سوريا التي اعتقد ان امرها في غاية التعقيد حيث احسب ان الحرب فيها قبل سبع سنوات ما قامت الا بسبب رغبة اسرائيل في تفكيكها تمهيدا لسيطرتها على الجولان، الحرب في سوريا قامت بسبب الجولان وموقعه العسكري على صعيد المنطقة وما فيه من مياه وارض زراعية وسياحية ستضمن لاسرائيل جل ما تريد.

السؤال الحقيقي الذي لا بد لنا ان نطرحه على انفسنا والعالم هو «ما الذي تريده اسرائيل؟ والى اين تقود المنطقة» حيث لم يعد يأبه احد على صعيد المنطقة من ترك وكرد وفرس ولا على صعيد العالم بما نريده نحن.

صحيح ان اسرائيل/ الغرب تريد لنا المزيد مما نحن فيه ولكن صحيح كذلك اننا نساهم بذلك بقوة.

إسرائيل مشروع غربي تاريخي

بعد تدمير العراق على يدي اميركا/الغرب بقيادة بوش الاب عام 1991 وبوش الابن عام 2003، افاجأ انها استدارت منذ تلك اللحظة للبدء بعملية تدمير ايران اذ اذكر رد هنري كيسنجر حين سُئل عن من يفضل ان تربح الحرب التي كانت دائرة بين العراق وايران قال انه يتمنى ان تتم هزيمة الطرفين.

لا ادري اذا انتبهت القيادة الايرانية آنذاك الى مضمون ملاحظة كيسنجر وان الغازي الغربي لا بد وان يستدير ليأكل الثور الابيضبعد ان انتهى من التهامه للاسود. الاصل: البارحة واليوم والغد هو حماية اسرائيل، الامر الذي يعني من الناحية التاريخية ان لا تبقى في المنطقة اي دولة تتمتع بقوة قد تشكل اليوم او مستقبلا اي قدر من الخطر على هذه الاسرائيل / الغرب. وهو الامر الذي اتمنى على الرئيسالتركي رجب طيب اردوغان ان ينتبه له وان يتفهم ابعاده على الرغم من الكلام المعسول، وعلى الرغم من العلاقات الاسرائيلية الغربية التركية.

المشروع الغربي الصهيوني لم يأت لاعنوة ولا استجابة لنزوة هذا السياسي الغربي او ذاك ولا كان في يوم من الايام مقصورا على فترة زمنية معينة ومحددة بل هو حلم غربي سحيق في ذات الفكر والشخصية الغربية منذ الازل له جذور في الدين والجغرافيا والفكر والفن وكتابات الرحالة والمستشرقين منذ القدم.

ومن اروع الكتابات الرصينة اشير فقط الى كتاب"الاستشراق" لادوارد سعيد، الذي يسلط فيه الضوء على الدوافع خلف المجابهة – الصراع والهجمة المستمرة الغربية على الشرق. وكتاب آخر للاستاذ توماس آسبرج من جامعة اكسفورد البريطانية بعنوان"الحملات الصليبية"بما يزيد على الألف صفحة يؤرخ فيها لهذه الحملات ودوافعها الواحدة تلو الاخرى.

ولعل من اهم ما لفت انتباهي في هذين المؤلفين الاصرار والعناد الغربي على مدى القرون منذ فجر الاسلام على العِداء نحو العرب، مسلمين ومسيحيين الذين حملوا رسالة الحضارة الغربية الاسلامية ونشروها ودافعوا عنها بكل ما اوتوا من قوة وعناد.

الصراع منذ تلك اللحظة مرير تشتد حدته من لحظة لأخرى ولكنه اخذ طابعا اكثر حدة ومرارة على مدى القرون الخمسة الاخيرة ونجاح الصهيونية في التغلغل العميق جوف الحضارة العربية بدوافع دينية عنصرية حرفت الكثير من تعاليم اليهودية وفيما بعد لدى قطاعات واسعة من المسيحية الغربية لتجعل منها اداة مطيعة بيد صانع القرار الاسرائيلي اليومعلى مدى القرن الماضي تم استهداف العرب من خلال تعاون بعض العرب على العرب وهكذا نجحت خطة رئيس الوزراء البريطاني هنري كامبل بانرمان 1907 الرامية لتقسيم وشرذمة العرب والابقاء عليهم في حال من التيه والضياع والبحث عن مخرج. صحيح ان العرب اليوم عنصر سكاني مهم من عناصر المنطقة ولكن صحيح كذلك ان القرارات المصيرية ليست بأيديهم، واليوم يتعاون الغرب/ الصهيونية مع بعض دول الجوار على البعض الآخر من دول الجوار. اما وقد تم التهام الثور العربي الابيض والعمل جار لالتهام الثور الايراني الاسود فعلى تركيا ان تعيد النظر في حساباتها، وان بعقلانية وروية وان الثور التركي الابرق لا بد وان يلقى نفس المصير اذ لا يفرق الغرب/الصهيوني ما بين شيعة وسنة كما انه لم يفرق سابقا ولا هو يفرق اليوم بين مسيحي ومسلم عربي اذ ان جميعنا مذنبين منذ الولادة! الغرب واع لما تفعله اسرائيل، واع لعنصريتها واستعلائها واعتدائها على جميع المبادئ الانسانية والقوانين وواع لعنصريتها وواع اليوم لقانونها الاساسي الذي تم اقراره قبل ايام والذي جعل منها دولة عنصرية دينية شوفينية متعصبة، ولكنه تخد لها الاعذار لان في هذا ما يخدم مصالحه، اسرائيل اليوم جزء مهم من الغرب واساطيله الرابضة في حيفا ويافا، يعتذر عن جميع ما تفعله لاعلى ارض فلسطين وحسب حيث تعامل العرب كحيوانات تخوز ذبحها بل وعن اعتداءاتها على سوريا، والاردن ولبنان والعراق ومصر وغيرها.

وتقول تيريزا ماي رئيسة وزراء بريطانيا بفخر انها سليلة بلفور ويغرد ترمب باعتزازه وافتخاره بصديقه نتانياهو ويشهد المشهد السياسي الغربي موجة يمينية عارمة معادية للعرب والمسلمين.

جاءت التعددية وقبول الاخر للاخر امتثالا لآيات في القرآن الكريم وإرادة الله، لا منحة ولا منة ولا مكرمة لا من خليفة ولا من حاكم او سلطان، وهو امر لا تعرفه الحضارة الغربية حتى ان العالم الفيزيائي البرت اينشتاين يقول انه العنصرية سمة اساسية فيها وانها لعنة وسبة هذه الحضارة، منذ انشاء دولة اسرائيل، لا بل منذ زمن ثيودور هرتزل يسيطر اليهود الغربيون الاشنكناز على اليهود كافة وعلى الفكر الصهيوني، الامر الذي يفسر عنصريتهم واستكبارهم التي وصلت حد البربرية في تعاملها مع العرب عامة واهل فلسطين خاصة، وعلى قادة المنطقة من عرب وترك وكرد وفرس وغيرهم.

الوعي ان الصهيونية الغربية بمسيحيتها المشوهة ويهوديتها الاشد بشاعة لا علاقة لها لا بتاريخ المنطقة ولا بارثها الاجتماعي المستند الى قبول الاخر للاخر والعيش المشترك، وهم في حقيقة الامر لا يعرفون بين هذه الاقوام التي يعتبرونها مجرد شعوب اقل قيمة خلقها االله على شكل انسان ولكنها وضيعة جاءت لخدمة شعب االله المختار، وللاسف وجدت هذه الاراء الفاسدة تجاوبا لدى فئات واسعة من مهووسي المحافظين الجدد حيث التقت العصنرية الانجيلية مع العنصرية الصهيونية لتعيد الانسانية الى كهف الجهل والانتحارية والعدمية.

دراسة في بعض أسباب تعثر العرب في العصر الحديث

لماذا ما زلنا نحن العرب نجد أنفسنا غرباء في العصر الحديث وكأن مفاهيم وأساليب الحضارة الحديثة مستعصية علينا؟

كنا وحضارة الغرب على مستوى التقارب جداً حتى لحظة ما في نهاية العصور الوسطى فما الذي حدث عندهم ولم يحدث عندنا حتى انطلقوا هم في تقدمهم التكنولوجي حتى وصلوا إلى الأفلاك وسبروا غور المحيطات بينما ما زلنا نتخبط نضرب الأخماس بالأسداس في حال من المخاض: قدم في الماضي المجيد وأخرى تتلمس بحذر وخوف أبعاد الحاضر غير قادرة على الولوج إلى المستقبل. هل بمقدورنا أن نتعرف على القوى التي ما زالت تشدنا إلى الماضي بحيث ما زلنا نستمر في حال المراوحة مكاننا غير قادرين على الإفلات منها؟

تعود جذور النهضة العربية إلى جهود محمد علي الكبير إثر غزوة نابليون إلى مصر حين قام بإرسال عدد كبير من الطلبة في بعثات إلى مختلف دول أوروبا لدراسة أسباب تقدمها ومن هؤلاء الطلبة أربعة من أبنائه. بعد سبعين عاماً قام الإمبراطور الياباني الميبجي إثر الغزو الأميركي لبلاده بما قام به محمد علي مما يوجب السؤال الصعب حول أسباب ما حدث في اليابان من تقدم تكنولوجي واجتماعي ولم يحدث في مصر والعالم العربي. ويزداد الأمر وضوحاً حين النظر إلى التقدم الهائل الذي حصل في الصين منذ بداية عهد رئيسها السابق دنج شاو بنج سنة 1983.

هذه التساؤلات وغيرها على جانب كبير من الأهمية لا لمجرد تفسير أسباب أحوالنا في هذا الزمن الرديء وحسب بل ولضرورتها القصوى لمستقبل الأجيال القادمة كي تتمكن من الدفاع عن نفسها في وجه أعاصير المستقبل وتحديات حضارة الغرب الغازية والجسورة على اللجوء إلى العنف متى اعتقدت ذلك ضروريا للحفاظ على مكتسباتها.

سهل جداً إلقاء اللوم على الاستعمار والغرب والصهيونية، وصحيح جداً أن الصراع المتجدد مع الغرب عبر التاريخ على روح وإمكانات المنطقة كان وما زال عاملاً أساسياً في حال التردي الذي نحن فيه، ولكن لا بد من أن نبحث في الأسباب المجتمعية الداخلية في نسيج حضارتنا العربية الإسلامية التي كان لهاالدور الأكبر في استمرار حال تخلفنا عن مواكبة ضرورات العصر.

وأبدأ بالقول أننا أمة وسيطة حضارياً من الناحيتين الجغرافية بين القارات قلب العالم القديم حيث تنبع أهميتها كونها تسيطر على الممرات الأرضية والمائية والجوية أضاف إليها اكتشاف النفط في العصر الحديث أهمية فوق أهميتها التاريخية، كما وأننا أمة وسيطة زمنياً بين حضارات العالم القديم والحديث، يعتقد أهل الغرب أن لهم مصلحة حيوية في منطقتنا لا بد لهم من محاولة السيطرة عليها إما مباشرة أو على الأقل عن بعد، ولعله من المناسب كذلك الإشارة إلى أننا حضارة تثمن حياة الإنسان لا تميل إلى العنف إلا في أحوال معينة وتجنح للصلح في معظم الأحوال.

وقد مهد للجنوح نحو السلام وعدم اللجوء إلى العنف دينا المنطقة الرئيسيين عبر التاريخ الإسلام والمسيحية ووسطية المنطقة بين قارات العالم وحضاراته مما شجع الفكر العربي على التوسط والمفاضلة ما بين بديل وبديل بدلاً من التخشب والالتزام بنهج واحد في التعامل مع الحياة، وهكذا يمكن القول أن حضارتنا العربية الإسلامية الرائعة بتعدديتها الممثلة بنظام الملل والنحل الذي وصلنا عبر الإمبراطورية العثمانية المستندة في أصولها إلى صلب عقيدة الإسلام تشجع الإنسان العربي على نحو معين من الحياة قوامها التجارة بدلاً من الإنتاج يغلب عليها طابع قبول الفرد للحياة ضمن نمط وإيقاع وتكرار حتى رتابة، الحياة داخل الملة أو النحلة اجتماعياً أو ضمن الحياة التجارية الرتيبة في أسواق تسير حسب روتين حياة لا يشجع على الخروج عن القاعدة أو النمط الذي هو فيه، وبحيث أن حتى فكر الإنسان يسير ضمن قنوات حددتها القيم الروحية وطقوسها والجذور العميقة لثقافة الدين لدينا.

فالحياة داخل المدن والقرى والأرياف وحتى البوادي تسير حسب أصول معينة صعب الخروج عن قواعدها، فالأسواق في قصبات المدن مصنفة حسب الحرف التقليدية: أسواق النحاسين، النجارين، الفضة، الذهب، الملابس، الأحذية، والقرية كما

المدينة تسير حسب المواسم بحيث كان الوقت تقريبياً صيفاً وربيعاً وشتاءً وبحيث حتى المسافات تقريبية لأهل المدن والبوادي على حد سواء، وقد تقهقرت الحياة على مدى قرون الامبراطورية العثمانية بحيث عادت مساحات شاسعة من بلاد الرافدين وسوريا الطبيعية إلى نوع من عقل الصحراء وفكر وحياة البداوة حيث للزمن إيقاع بطيء وللمسافة أبعاد تقريبية بين حمى قبيلة وأخرى ولم يكن لدينا حدود جغرافية بين بلد وآخر، ونمت عندنا كذلك في أجواء الصحاري الشاسعة نزعة الاعتماد على عوامل الطبيعة، وفردانية تحتقر العمل اليدوي والجماعي بآنٍ واحد.

واستقرت الحياة على نحو معين من النمط والتماثل والروتين بحيث كان من الممكن التعرف على الفرد ذكراً أو أنثى من لباسه إذ كان لكل قبيلة نوع من الزي وحتى في المدن كان من السهل التعرف على سيدة من لباسها الحلبي أو الشامي أو الكركي أو السلطي أو البغدادي هل هي من بيت لحم أو من المجاورة لها بيت جالا.

حتى الكلام المتداول بين الناس كان يسير على نمط وأسلوب معين في الخطابة تكثر فيه الأمثلة الشعبية التي تسهل عملية انتقال الأفكار دون جهد كبير والتي تشجع على قبول الحياة كما وردت فارتفعت قيم القناعة والقسمة والنصيب، الأصل أن يقلد الخلف السلف وأن يتقبل الإنسان الموجود وعدم الخروج عن النمط المألوف الذي إن حصل يعتبر أحياناً حراماً أو عيباً، ننبهر بالكلمة وبالبلاغة وننسى الجوهر، وللشعر قافية وإيقاع من المستحسن عدم الخروج عنها وحتى الحداء والغناء والرقص والدبكة تسير حسب إيقاع معين داخل كل مجموعة أو مكون من مكونات مجتمع الملل والنحل، الأصلهو التقليد وأتباع النمط السائد المقبول اجتماعياً، مجتمع يضع قيمة الاستقرار فوق كل قيمة أخرى تعايشت فيه المكونات المجتمعية المختلفة في ظل دولة بعيدة عن الناس من النواحي النفسية وحتى الجغرافية لا تتدخل في حياتهم إلا من النواحي الأمنية، دولة أقوى من شعبها غير معنية لا برخاء حياتهم ولا أي تفكير لديها حول المستقبل وصلتنا عبر قرون الإمبراطورية العثمانية لتصبح مجرد حارس للأمن وجاب للضرائب وكلاهما غير مرغوب به، مما شجع النظرة السلبية للناس تجاه الدولة وقاد إلى مجتمع هشسهل الاختراق.

استقرت الحياة قبل وبعد الحقبة العثمانية على هذا النحو وأسلوب الحياة، عقل مدجن يعتمد الحفظ عن ظهر قلب وكأن للمعرفة حدودا وأسلوب حياة رتيبا منمطا يصعب الخروج عنه ونسينا أساليب الاعتماد على العقل والتجربة والخطأ التي تعود إلى أفكار عالمنا العربي الحسن إبن الهيثم، واستكان المجمع كبركة هادئة جاءت حملة نابليون بونابرت في نهاية القرن الثامن عشر وكأنها صخرة ضخمة سقطت فيها لا تزال تفاعلاتها معنا حتى اليوم، حيث نستمر في البحث عن المعادلة التي قد تعيد إلى الأمة توازنها.

إعتاد إنساننا وكذلك جماعاتنا على فكر وروتين النمط الذي يغني عن التفكير بحيث لا تخهد الإنسان نفسه في البحث عن حل فالأمور تجري تلقائياً فلكل مناسبة كلام ولكل كلام أو سلام رد معين والكل يعرف الكل ويعرف مقام ومنزلة الكل داخل المكون الاجتماعي الذي بدوره يعرف منزلته ومقامه ووزنه الاجتماعي داخل المجتمع الكبير، والحياة تسير بيسر ولو على القلّة وتغذى الوعي وحتى اللاوعي بقبول الأمور كما وردت الحال الذي شجعته نزعة العرب للاعتماد على الوساطة والتجارة للكسب بدلاً من الانتاج والخلق والإبداع.

أما سياسياً وحتى اجتماعياً فالأصل هو الطاعة، الطاعة للدولة ممثلة بحاكمها مهما اختلف لقبه، والذي لا تخوز الخروج على طاعته أو مساءلته فهو نبع الشرعية السياسية وحتى أحياناً الروحية، وكذلك كانت الحياة داخل المكون الاجتماعي فلا جدال مع شيخ القبيلة أو مختار القرية أو الحي أو شيخ الحرفة، والأمر كان كذلك داخل العائلة حيث كان لقب الأب «رب العائلة» وما لهذه الكلمة من هيبة ووقار الذي تعنيه الربوبية، فالخروج على طاعته عقوق له أبعاد اجتماعية ودينية في آن واحد، العائلة في القبيلة أو الملّة أو حتى الدولة هرمية البنيان وعلى رأس أولوياتها الاستمرار والاستقرار، غير مسموح

النقاش داخلها حول مواضيع السياسة أو الدين أو الجنس الأمر الذي قاد إلى السكونية التي لا تعني الرضى بل الرضوخ فتقول الأم لإبنها «أسكت يا ولد» الكلام للكبار أو «إن شاء االله تطلع مثل أبوك» رغم كونه غبيّاً أحياناً.

الأصل كان عدم الخروج عن النمط الذي تمليه المؤسسات السياسية والاجتماعية أو ما تم التعارف عليه من عرف وعادة حتى نما الحسن لدى البعض وكأن عقل الإنسان قاصر أو ناقص، هذا العقل الذي منذ نعومة الأظفار يدجن ليقبل ما تجمع عليه الجماعة من رأي، وعلى من كان له رأي مغاير أو أسلوب جديد أن يخفيه وأن يتستر عليه الأمر الذي كان يصل أحياناً أن يبدي الإنسان ما لا يضمر وأن يلتحف بعدد من الوجوه يصلح بعضها لمهام ولكن ليس لأخرى، فالأصل أن تتماشى رغبة الإنسان مع الجماعة وأن يفكر بأسلوبها ومن خلالها وأن تندمج شخصيته في نسيجها، ومن كان غير ذلك فهو غريب سرعان ما ترفضه الجماعة فالأهمية ليست للفرد وإنما لكونه جزءا من الجماعة.

في مثل هذه الأجواء وعلى مدى قرون فقدنا القدرة على موازنة الحياة الدنيا مع الأخرى، هذا التوازن الذي أراده االله لخلقه حين أشار إلى ضرورة الفصل ما بين المعاملات المتعلقة بشؤون الدنيا وضرورة إعمالالعقل فيها لعمارة الأرض لرفاه الإنسان والعبادات التي هي شأن خاص ما بين الإنسان وخالقه لا تخوز البحث في حقائقها الأزلية، في مثل هذه الأجواء السكونية والسير في مسارات فكرية وسلوكية معينة اختلط المقدس بالوضعي وعزف الناس عن التفكير وتغلب الطقس والمظهر على الجوهر حيث قاد تفضيل الحياة الأخرى على الدنيا وما صاحبه من إعلاء قيمة القناعة والقبول بالمقسوم المقدر؛ قاد إلى إحساس قوي لا شعوري بأن الإنسان غير قادر على التقدم والتطور والنظرة المستقبلية وكذا فقدان روح الأمل لا بل حتى الاستسلام.

لا زالت قطاعات واسعة من شعوبنا وعلمائنا ومثقفينا وحتى اللحظة، ورغم كل المصائب والأحوال التي حلّت بالأمة تعتقد بأن الاحتكام إلى العقل، أو ما يسمى بالعلمانية فيه تنكر للدين والقيم الروحية، وهو اعتقاد لا أساس له من الصحة في ضوء سببين رئيسيين أولهما أن حضارتنا العربية الإسلامية بمرجعيتها التي تعود إلى صلب عقيدة الإسلام تأمر الإنسان بالتعقل وأن يحتكم إلى العلم في تدبر شؤون الدنيا، اول كلمة في القرآن الكريم جاءت بصيغة الأمر «إقرأ» التي أحسب أنها من أروع ما أمر الخالق الإنسان أن يفعل، والقراءة تعنى الاجتهاد والاحتكام إلى العقل فيما يتعلق بشؤون الدنيا والاجتهاد فيها حيث «الأيام دول» ولضرورة تغيير الأحكام بتغير الزمان، وأنتم أدرى بشؤون دنياكم.

الشريعة أو العقيدة كما وردت في النص الديني وفي الأديان السماوية خاصة، منبع القيم الإنسانية ومكارم الأخلاق للبشر ومن روحها ومن وحيها ضرورة استنباط التشريعات أو القوانين الوضعية لضبط حياة المجتمع وحفظ حقوق البشر، هذه التشريعات والقوانين لا بد من تطويرها وتعديلها لتلائم ظرف الزمان والمكان فهي قوانين وضعية إجرائية من إنتاج البشرية لا تخب إضفاء صيغة القداسة عليها.

المطلوب إذن ليس إنكار الدين أو التخلي عنه بل التركيز على الجوامع ما بين الدين الواحد من جهة والأديان الأخرى من جهة أخرى، هذه الجوامع التي تعزز وحدة البشر من خلال الاعتراف بتعدديتهم التي شاءها الخالق كما وعمل على إعلاء قيمتها بدلاً من الانتقائية التي تفرق بين الناس وترفض الآخر أو تتنكر لوجوده فالدين جاء لما ينفع الناس ويدخل الطمأنينة إلى قلوبهم لا ما يفرق ويؤجج البغضاء بينهم.

إذن بمقدار ما هي مشكلتنا مع الغرب الغازي لنا مشكلة كامنة في ذات أنفسنا ومجتمعاتنا تجذرت عبر عصور الركود والانحطاط واستكانت إلى أسلوب حياة وتفكير أقرب إلى العزوف عن الانخراط في السعي في الحياة الدينا، جاءت غزوة نابليون تمثل هجمة أخرى من هجمات الحضارة الغربية التي ما زالت تنتج وتتدفق حيوية ونشاطاً والتي بدلاً من مواجهتها كما فعلت اليابان وفيما بعد الصين بأسلحة العقل الذي هاجمتنا هي فيه حسبنا أن الخلاص هو في التقوقع والهروب نحو الماضي والالتزام بما ورد من السف، وكذلك تغليب النقل على العقل جوهر ما نحن فيه من حال رديء، وإذا ما شئنا لأولادنا

وأجيالنا في المستقبل أن يكونوا على حال أفضل من حالنا اليوم علينا أن نسلحهم بنور العقل وكيفية تدبر شؤون الدنيا، هذا ما حصل في الغرب في أعقاب العصور الوسطى.. احتكموا إلى العقل دون التخلي عن دينهم وقيمهم الاجتماعية كما يحلو للبعض أن يعتقد، ولنتذكر أن العقل، كما الإنسان والمخلوقات جميعاً هي أيضاً من صنع الخالق عز وجل، وأن الخالق ما صنع هذا العقل وميزنا به عن مخلوقاته كافة إلا لنستعمله ونصقله ليخرج عن حاله ليسرح وتخوب في الخيال ويتمتع بالتأمل بما يرضي الخالق وبما يرضي المخلوق ويقود إلى الأفضل.

نريد التغيير دون أن نغيّر ما بأنفسنا على الرغم من وعينا لضرورته للمستقبل حيث نما عند بعضناالخوف من المستقبل فيقول المثل: االله يستر مما سيأتي، وزاد من حدة الأمر الحلف التاريخي الخفي غير المدون بين المؤسستين السياسية والدينية لتمكين سيطرتهما على المؤسسة التربوية لإعلاء قيمة الاستقرار والإصرار على النهج التعليمي المستند إلى البصم والحفظ عن ظهر قلب حتى بالإكراه حتى مع عدم الفهم وكأن للعلم حدودا وهكذا تم تدجين العقل بدلاً من إطلاقه ليغامر في البحث والخيال والابتكار والإبداع، تدجين العقل يقضي على الخميرة الضرورية لارتقاء المجتمع مما قاد إلى غياب المنطق السليم حتى أصبحنا نقبل بالشيء ونقيضه في نفس الوقت نتأرجح ما بين الصورة والواقع والأصالة والمعاصرة فنهرب إلى الماضي وإلى نمطه المألوف والذي يعج بالأمثلة الشعبية التي تغني عن الحجة والتفكير.

جاءت غزوة نابليون كزلزال ما زالت تردداته معنا إلى اليوم، وقاد انتقالنا السريع وشبه الفجائي من القرى والأرياف والبوادي إلى المدن كزلزال آخر أضاف إلى ما سبقه من تحديات لمجتمعنا التقليدي حتى أصبحنا اليوم على ما نحن فيه نعيش في زمنين وعصرين مختلفين كالغراب الذي حاول أن يتعلم السير كالحجل فكانت النتيجة أنه نسي كيف كان يسير سابقاً ولم يتمكن من إتقان سير الحجلة وهي لحظة مخاض تاريخية مليئة بالحيرة وفقدان اليقينية ولكنها مليئة كذلك بالفرص التي تقود إلى مستقبل أفضل.

في تفسير الحال العربي

ما اكتب هنا ليس من باب الاعتذاريات Apologetics ولا حتى من باب الدفاع عن النفس وانما للتأكيد ان هناك املاً في المستقبل وان السوداوية التي تخيم على عقول بعض مفكرينا ليست قدراً محتوماً لا مفر منه، واحسب ان امتنا عايشت فترات سيئة تكاد تقارب ما نحن فيه اليوم ولكنها استوت مرة اخرى على قدميهاوساهمت في بناء الحضارة الانسانية، لا بد من اعطاء فسحة امل للأجيال القادمة التي يزداد احباطها وتزداد سوداويتها من يوم لآخ، اذ ما بين حال البطالة والفقر والجهل من جهة وعربدة وعنجهية اسرائيل والصهيونية العالمية من جهة اخرى، لا يبدو وكأن هناك بصيص امل في نهاية السرداب، هناك امل والمستقبل امامنا مهما فشلت معظم ما تسمى قياداتنا اليوم من جهة والاستكبار والاستعلاء الاسرائيلي من جهة اخرى، واجزم ان المستقبل لن يكون بأي حال من الاحوال مجرد استمرار للواقع السيء اليوم.

لن اتحدث عن الارهاب الذي ما زالت امتنا تعانيه منذ نزول جند نابليون الغربية شواطئ بلادنا نهاية القرن الثامن عشر، فالاستعمار ارهاب وتقسيم البلاد الى ما يلبي رغبة المستعمر ارهاب، واقتطاع قلب البلاد المشرقية ليصبح دولة لاسرائيل ارهاب، ونهب اموال الأمة لخدمة الاستعمار ارهاب، جميعها امور لا بد من التأكيد عليها المرة تلو الأخرى لا لتذكير انفسنا بأسباب ما نحن فيه وانما لتذكير قادة الغرب بأن ما نحن فيه ليس لغباء فينا او من صنعنا لوحدنا، وانما يعود كذلك الى سياساتهم الاستعمارية التي لا يبدو وكأن هناك من نهاية لها. يتذمرون اليوم عليهم وينسون ان معظم هؤلاء لم يأتوا لرغبة

في الهجرة الى بلادهم وانما بسبب الاستعمار الصهيوني الغربي الذي لا يكل ولا يمل من اثارة الفتن والاحقاد والمؤامرات في بلاد العرب التي اصبح معظمها طارداً لشعوبها.

اذا ما اضيف الى هذه الامور حقيقة اننا صحونا فجأة على عالم غريب لا صديق ولا رفيق لنا فيه، وبعد غياب عن حكم انفسنا الى فترة تزيد على الألف سنة لتبين لنا بعض ابعاد الحال الذي نحن فيه، على مدى قرون طويلة تحولنا الى بركة ساكنة راكدة ولم نساهم لا في تطوير بلداننا ولا في التيارات الحضارية في ذلك الزمان، وغزوة نابليون كانت بمثابة صخرة سقطت وسط هذه البركة اتبعها الاستعمار الغربي بصخرات اشد صلابة وابعد وقعا.

المسألة اعمق واعقد من مجرد ضباب يكتنف العقول، ينقشع الضباب حال ظهور نور المعرفة ولكن لا بد لنا من التساؤل، ولماذا لم ينقشع هذا الضباب على الرغم من مرور ما يقارب المئتي سنة على صحوتنا على العصر الحديث، ولماذا مصر على حالها الذي يشابه حال الامة كلها على الرغم انها سبقت اليابان لفترة سبعين سنة في البدء في جهود التنمية والمعرفة والعصرنة؟ واين نحن مناليابان؟ وهل حقا ان اهم اسباب تقدمها ان لا حقائق ازلية لديها تشدها كأوتاد راسخة في الارض الى ما هي فيه والى الماضي؟ وها نحن اليوم نشاهد المارد الصيني يستوي على قدميه ليصبح، وبفترة وجيزة تقل عن الجيل الواحد، دولة عظمى بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وهنا لا بد من التأكيد ان ليس المطلوب التخلي عن التراث الروحي او الدين الذي اعتقد باهميته وضرورته لتهذيب الانسان وتشذيبه ليرتقي الى مراتب اعلى من الانسانية بل التوقف عن خلطه بكل شأن من شؤون الحياة حيث تحول في كثير من الاحيان الى طقوس رتيبة خالية من اي محتوى روحي حقيقي، فلا الشرق ابتعد عن تعاليمه ولا الغرب اقصى الدين عن حياته بل جعلا منه اداة ووسيلة للسلام الاجتماعي وسكينة النفس.

سهل القول بفشل هذه السياسة او تلك واسهل من ذلك القاء اللوم هنا او هناك ولكن الاهم هو طرح الاسئلة الصعبة التي قد تساعد على تفسير الاسباب الحقيقية لمراوحتنا في مكاننا على مدى القرنين الماضيين في حالة من التخبط والحيرة لا نحن في الماضي ولا في الحاضر ولا نعلم شيئا عن المستقبل.

ماذا كان شكل ومضمون حياتنا السياسية والاجتماعية حين صدمتنا الحضارة الغربية ممثلة بنابليون في بادئ الامر؟ ولماذا فشلت عملية الترقيع التي قامت بها الدولة العثمانية والتي ما زال معظم انظمتنا في العالم العربي تتبعها؟ عبر قرون الحكم العثماني تحولت الدولة الى مجرد حارس للنظام من جهة والى جابي للضرائب وابتعدت كثيرا عن الخلق الا للقيام بهاتين المهمتين حتى عادت الحياة في كثير من بلداننا العربية الى نوع من البدائية والبداوة والاستسلام لعوامل الطبيعة من جهة والتي نوع من الاستبداد تعددت طبائعه على مستوى العائلة والعشيرة والدولة حتى اصبحنا نطالب فقط بالمستبد العادل ويقول بعضنا ان السلطان هو البعيد عن السلطان.

اما نظامنا الاجتماعي والديني فقد تخلق بنظام الملل والنحل الذي ترسخ مع نهاية الدولة العثمانية بثماني عشرة ملة معترفاً بها آنذاك ويعترف بها النظام اللبناني دستوريا وتعترف به معظم الدول العربية مغربياً ومشرقياً بالممارسة والعرف والعادة.

سكنت الحياة الى هذا النمط السياسي غير التدخلي في حياة الناس والىمحتواه الاجتماعي من ملل ونحل كل منها مجتمع منفرد في ذاته داخل المجتمع الواسع، والاصل على مستوى النمطين السياسي والاجتماعي الطاعة والعصا لمن عصى وفكر، فالخلق كانوا رعايا يقودهم الراعي لا مواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات.

وفجأة كان علينا في مشرقنا العربي ان نحكم انفسنا بدلاً من الحكم العثماني، وتراكضنا هنا وهناك نبحث عن نموذج ودخلت علينا مفاهيم ومصطلحات كثيرة لم نعرف عنها شيئاً بالسابق ومنها على سبيل المثال لا الحصر الديمقراطية وحرية

الفكر والتعبير وحق المعارضة والدستور والدستورية والحكم المحكوم باحكام وقوانين وقواعد وأصول، والوطن والمواطنة والمساواة امام القانون، والشرعية وغيرها من المصطلحات التي يتحدث بعضنا فيها دون ادراك حقيقي لابعادها ومتطلباتها.

ماذا تعني حقا كلمة الدستور؟ في عصور الانحطاط استكانت عقولنا وانماط سلوكنا وافكارنا الى ممارسات كنا نتقبلها تلقائياً ودون فحص او تمحيص حيث كنا نقول انه لكل مقام مقال وحيث تعرف كل ملة او نحلة محلها ومقامها التي لا تفكر هي في التجاوز عليها، رياح تغيير عاتية دخلت علينا، ما زلنا نحاول التكيف والتفاعل معها، هل نفهم او ندرك حقاً معنى الديمقراطية او المواطنة وابعادها؟

منذ بزوغ فجر الاسلام، والدولة في مشرقنا العربي في حالة تأهب للدفاع عن النفس ضد هجمات الخارج، بعضها من الشرق واغلبها من الغرب. قاد جو الازمة هذا على مدى قرون طويلة، الى عدد من المضاعفات منها التركيز على اعلاء قيمة الامن والاستقرار على اي قيمة اخرى، واعطاء رأس الدولة كل الصلاحيات لتحقيق ذلك.

لا شك بان عددا لا بأس به من الخلفاء والسلاطين والامراء والحكام الذين تعاقبوا علينا عبر القرون الماضية كانوا صالحين وجيدين، ولكن لا شك ان الغالبية منهم كانوا عكس ذلك واثبتوا مقولة الفقيه القانوني البريطاني اللورد اكتون «ان السلطة مفسدة وان السلطة المطلقة مفسدة مطلقة».

في اجواء حكم لا مرد فيه لارادة السلطان، اصبح شأن «علماء» عصره، تبرير افعاله وتثبيت السلطة لابناء الدولة او تطوير المجتمع. وهكذا ابتعدت الدولة عن الناس بحيث لم تعد تكترث ابدا لا بما يفكرون ولا بطموحاتهم واحلامهم ولا حتى بأمور حياتهم اليومية من حيث التربية او التعليم او الصحة او التنمية بأي بعد من ابعادها حتى ان الدولة التي وصلتنا عبر قرون الحكم العثماني تقلصت الى مجرد حارس للامن، وجاب للضرائب، وكلاهما لم يكن محبوبا من الناس والافضل الابتعاد عنه بحيث تطور لدينا فكر يقول ان الوطني الحقيقي ليس من يوالي الدولة ويدعمها بل ذاك الذي يعارضها وهو تراث سيىء نشاهده احيانا في افعال وكتابات بعض مثقفينا اليوم.

عبر التاريخ كان عماد دولتنا المشرقية الجيش: الجيش وتوابعه من الاجهزة الامنية والذي كان يقف على أساسه دوما الحاكم مهما كان لقبه، وفي الجيش ضبط وربط واصول واوامر لا مجال للنقاش فيها الامر الذي عززه على مدى القرون الخمسة الاخيرة توسع الاستعمار الغربي وتعدد اساليبه في التحكم مباشرة او احيانا عن بعد، والجيش بحاجة الى قائد لا تجوز مساءلته بل له الطاعة.

في مثل هذه الاجواء استكان المجتمع الى تعدديته في نظام الملل والنحل الذي كان، وما زلت اعتقد انه من اجمل سمات حضارتنا العربية الاسلامية والمتقدم بخطوات كثيرة على احادية المذهب في المجتمعات الاوروبية التي قامت بعيد حلف وستفاليا 1648 حيث اتخذت الدولة القومية الحديثة في كل من اسبانيا والبرتغال وايطاليا وفرنسا مذهب الكاثوليكية وحاربت كل ما عداه الى عهد قريب وحيث تجد انه حيثما حصل توازن مذهبي ما بين الكاثوليك والبروتستنت كما في المانيا استقر الكاثوليك في جنوب البلاد والبروتستنت شمالها وحيث اذا ما حصل توازن عرقي كما في بلجيكا او حتى سويسرا اخذت الاقليات حيزا جغرافيا خاصا بها ومنفردا عن الاخرين.

ولكن ومع الاعتراف بفضل نظام الملل والنحل عندنا والذي كان من الممكن ان يتطور ليصبح نموذجا للعالم لو تطور مجتمعه الواسع في العراق وسوريا مثلا الا انه وصلنا مجتمع ساكن راكد امتدادا للمجتمع الواسع حوله لم تقم مجتمعات الملل والنحل بتطوير نفسها بل استكانت الى ما هي فيه: مجتمع يخاف التغيير ولا جرأة لديه على المغامرة وتسود فيه كما تسود في المجتمع الواسع قيم السترة والقناعة والقسمة والنصيب والاستسلام حتى القول: «اليد التي لا تقدر عليها، بوسها ولكن ادعي عليها بالكسر».

من كان تخرؤ ان يخالف الوالد او الكبير او شيخ العشيرة او القبيلة؟ من كان يقدر على تجاهل العرف والعادة؟ وكيف لنا ان نفسر استمرار بعض القيم غير الصحيحة التي لا تزال تجد من يدافع عنها بقوة؟.

اعتقد ان التغيير السريع والمضغوط الذي حصل عندنا على مدى جيلين على الاكثر والذي اخذ عددا من القرون في بريطانيا واوروبا مثلا ما زال عاملا اساسيا في اسباب الورطة الحضارية والمراوحة في مكاننا الذي نحن فيه.

قبل ان ننتقل من القرى والبوادي الى المدن كان لدى معظمنا هوية واحدة او هويتين. اما اليوم فقد تعددت الهويات لدى الشخص الواحد بحيث يصعب احيانا على الفرد ان يقرر اي واحدة منها تسمو على الاخريات.

واضح ان انتقالنا من البوادي والارياف الى المدن يعني اكثر من مجرد تغيير في عنوان السكن واذا ما اضيف الى هذا الامر الزيادة السكانية الانفجارية على مدى الخمسين عاما الماضية وتعاظم توقعاتنا ومتطلباتنا التي تتوقع الدولة ان تقدمها لنا لتبدي لنا على الاقل جانبا آخر من جوانب التعقيدات التي اصبحت عادية والتي دخلت مجتمعاتنا فجأة ودون ان نتوقعها. الدولة التي حالها كحال مواطنيها في حيرة وبلبلة!

منذ نهاية الحرب العالمية الاولى لم تعرف لا شعوبنا ولا دولنا طعما لراحة البال او الطمأنينة ولو للحظة واحدة بل يبدو وكأن جو الازمة الخانقة يزداد تلبدا بمقدار عجزنا عن التصدي المعقول له.

للديمقراطية متطلبات تبدأ من التربية في الاسرة بحيث يحترم الكبير الصغير ويستمع لرأيه ويشجعه على التفكير المستقل وابداء الرأي والامر اكثر اهمية في المجتمع الاوسع حيث لا بد من تربية الناس وتعليمهم على ضرورة احترام رأي وشخص الآخر وفوق ذلك كله ان على الدولة نفسها وعلى جميع مستوياتها ان تتعلم استشارة واحترام رأي الناس في الامور العامة. وجميع هذه المتطلبات التي لم تكن في تراثنا السياسي او الاجتماعي بحاجة الى زمن لتضرب جذورها في النفوس والديمقراطية ليست وصفة طبية او سحرية تصبح حقيقة بمجرد ان يقوم مجتمع ما باعتماد دستور مدون اذ بمقدار اهمية اقناع الناس بان لمشاركتهم فعالية وانها بالفعل ضرورية لحياة افضل.

وكل هذا بحاجة الى جهد وزمن ولكنه لا بد من التأكيد اننا في الاردن نسير على الدرب الصحيح وان كان يبدو للبعض وكأنه سير بطيئ.

من أهم أسباب استمرارنا فيما نحن فيه من حال، صراع الغرب المتجدد عبر التاريخ معنا، هذا الغرب الذي هو اقرب الينا جغرافياً وحضارياً والذي ما يزال يصر اليوم على السيطرة علينا وعلى منطقتنا والذي تمكنت الصهيونية العالمية من التغلغل فيه والتعامل معنا من خلال عدسة الصهيونية ومفاهيمها التي جردته من الكثير من المثل العليا الانسانية كحقوق الحياة الكريمة والاستناد إلى قوانين الانصاف والعدل واحترام الآخر.

ولكن بالمقابل لا بد من طرح سؤال حول فهمنا نحن لعالم الغرب هذا، ولماذا تمكنت الصهيونية من تجييره لصالحها؟ فهماً يتجاوز النقاش السطحي وتبادل الاتهامات، هذا الغرب الذي كنا نحن على مستوى تقني وحضاري شبه متساوٍ معه حتى لحظة ما في نهاية العصور الوسطى، ما الذي حدث عندهم ولم يحدث عندنا بحيث اصبحوا هم على ما هم فيه، بينما ما زلنا في حال المخاض والمراوحة مكاننا.

يقول مثل بدوي عندنا :»اللي بالرجال ينعد« اي على الانسان ان يتعرف على خصال من يتعامل معهم حتى اعدائه ليتمكن من التعامل معهم بشكل معقول، فهل حاولنا فعلاً ان نتعرف على مكامن الضعف والقوة أو الدوافع خلف تصرفات اسرائيل والغرب لنعرف على الأّقل كيف نحمي أنفسنا؟.

المسألة على جانب كبير من الأهمية لا لأغراض تفسير ما نحن فيه اليوم من حال وانما لأهمية ذلك على مستقبلنا، حيث اعتقد ان أهم معضلة تواجه دولنا العربية هي كيفية التعامل المعقول مع هذا الغرب ووليدته اسرائيل بحيث نضمن ان المستقبل، مستقبل بلادنا واولادنا واحفادنا وحضارتنا، لن يكون مجرد استمرار للماضي القريب ولا الحاضر المرير الذي نعيشه اليوم.

من الواضح ان العرب، ربما باستثناء مصر، لا راغبين ولا قادرين على تقديم أكثر مما قدّموا حتى اليوم، وان المجابهة المستقبلية، على الأقل في الأمد المنظور، تقع بالدرجة الاولى على اهل فلسطين والأردن، والدعم الحقيقي الذي تقدمه مصر عسكرياً وسياسياً. ولكن لا بد من التأكيد ان مثل هذه الخاطرة لا تعنى اعفاء العرب كلياً من مسؤولياتهم بل الاكتفاء بالطلب اليهم تقديم الدعم المعنوي والسياسي والاقتصادي الضروري للمجابهة المستقبلية وان تتصرف كل دولة حسب قدرتها ورغبتها مع الغرب ولكن دون خجل أو وجل كما يفعل بعضها اليوم.

تأتي هذه الخاطرة في ضوء احداث القرن العشرين والمواجهة الغربية الصهيونية مع العرب وبالذات في ضوء حرب السنوات الست 1973- 1967 التي كان دافعها الرئيسي الابقاء على سير الملاحة في قناة السويس دون عائق.

منذ نهاية هذه الحرب تم نزع القناع عن نوايا اسرائيل الغرب بشكل واضح وبحيث لا يوجد هناك ادنى شك بأن السلام، اما ان يكون سلاماً اسرائيلياً بمعنى السيادة الكاملة على فلسطين والجولان السوري كذلك، أو لا يكون، تتعاقب الحكومات في معظم دول الغرب، ويتعاقب علينا رؤساء الدول والوزارات وتتم الاجتماعات واللقاءات والمعاهدات والتصريحات والوعود ولكن يبقى الاحتلال الاسرائيلي جاثماً على الأرض.

كل هذا يعني ان السياسة الغربية التي وضع أسسها رئيس الوزراء البريطاني هنري كامبل بانرمان عام 1907، والتي تمتد جذورها إلى وعد نابليون في مونبلييه 1799 لعودة اليهود إلى فلسطين والتي تتغلغل جذورها كذلك لتعود إلى حروب الفرنجة، لم تتغير ولم تتبدل أبداً. هنا، تخب علينا ان نحسب حسابه حين نفكر بمستقبلنا ومستقبل احفادنا، الأمر الذي يحتم علينا اعادة نظر كاملة وشاملة فيما فعلنا وما تخب علينا ان نفعله.

ولعل اول ما تخب علينا ان نفعله ان نؤكد ان الامر ليس ميؤوس منه، لا بل العكس كذلك اذ اثبتت امتنا العربية وقبلها فلسطين والأردن ومصر انها قادرة على النهوض مرة اخرى، ولكن المطلوب هو العمل بجدية وصمت وتحمل واشراك شعوبنا بصنع القرار ووضع الخطط لاجيال طويلة لا مجرد هبة أو فزعة.

علينا ان نعمل على اقناع الغرب ولكن بصمت وجدية اننا لن نستسلم ابداً واننا سنعمل على احياء القيم الراقية والرفيعة التي شوهتها الصهيونية عندهم كحقوق الانسان والمساواة والانسانية بكافة أبعادها لتعود وتسود مرة اخرى لدى شعوبهم.

مرة اخرى لا بد من طرح السؤال وهل بامكاننا مواجهة الغرب وحالنا هو ما هو عليه اليوم؟ الاساطيل الغربية وصواريخها وطائراتها تحيط بنا من كل حدب وصوب: في البحر الابيضالمتوسط والأحمر وبحر العرب والخليج العربي.

وعلينا ان نتفكر في كيف تم تدمير بغداد قبل ان يدخلها ولو جندي غربي واحد وكيف حصل ما يحصل في اليمن وليبيا وكيف تقسم السودان وكيف تم تدمير سوريا اليوم وكيف استفحلت علينا ما نسميهم بدول الجوار ومن هو الصديق ومن هو غير ذلك، وكيف ننسى فلسطين؟

حضارة الغرب الفتية ووليدتها اسرائيل ما زالت تزداد اندفاعاً وشراسة تتحدث بالمُثل العليا وتفعل ما تفعل، قادرة ولها اليد الطُولى وعلينا ان ننتبه إلى ذلك.

في مثل هذا الواقع علينا ان نفكر بروية لا ان نندفع بحماسة، ان نفكر ونعمل سياسيا لا بما نؤمن به عقائديا. لا اسرائيل ولا الغرب يريدون عرباً بعقل وهو امر تخب علينا ان نتذكره وبالذات ان الزمن اليوم ليس معنا، واعود مرة اخرى إلى الفارس البدوي حين «يلبد» اذا ما واجهه امر لا قدرة لديه عليه، ونلبد إلى حين نتعلم، ونُعلّم اولادنا وأحفادنا طرق تفكير ووسائل العصر.

كلمة في افتتاح ندوة "الإسلاميون والمسيحيون العرب" اليوم.

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحاب المعالي؛

أصحاب السعادة والعطوفة؛

رجال الدين الأجلاء؛

السيدات والسادة؛

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

نجتمع في هذه الأمسية المباركة لنتفاكر حول موضوع في غاية الأهمية بالنسبة لما في هذه المنطقة من العالم .. موضوع "الإسلاميون والمسيحيون والعرب".

وأرحب بكم باسم سيدي صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال راعي هذا1 اللقاء المبارك ورئيس مجلس أمناء المعهد الملكي للدراسات الدينية،،،

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص العرفان إلى الدكتور جواد الحمد، المدير العام لمركز دراسات الشرق الأوسط الذي يشاركه المعهد الملكي للدراسات الدينية في إقامة هذا اللقاء.

واسمحوا لي كذلك أن أرحب كل الترحيب بضيوفنا من خارج الأردن وأن أشكرهم على تجشّمهم عناء السفر لمشاركتنا في تبادل الفكر والرأي. وأخيراً وليس آخراً أرحب بجميع الإخوة والأخوات الأعزاء من الأردن راجياً المولى عز وجل أن يثمر لقاؤنا بما هو نافع ومفيد لأردننا العزيز ولأمتنا العربية الإسلامية الماجدة.

السيدات والسادة؛

لعله من المناسب البدء بالإشارة إلى أن خلفية طرح مثل هذا العنوان هي مسألة علاقة الدين بالدولة وهي مسألة معقدة وشائكة تتباين حولها الآراء والعقائد والأفكار ولا مجال هنا للخوض فيها وإن كان لا بدّ من التعريض لها.

يضم عنوان الندوة هذه – الإسلاميون والمسيحيون العرب – يضم في ثناياه فرضية أن هناك إشكالية لا بد من البحث فيها وأسمح لنفسي أن أبدأ بالقول أن الإشكالية أو المشكلة ليست مشكلة المسيحيين وحسب وإنما هي مشكلة الأمة بأطيافها كافة مسلمين ومسيحيين وغيرهم وأن هذه المشكلة حديثة العهد تاريخياً قامت مع ظروف الأمة الصعبة والمعقدة منذ نزول جند نابليون إلى مصر سنة 1798. منذ تلك اللحظة والأمة في أزمة حضارية خانقة.

منذ تلك اللحظة ونحن العرب في ورطة مع أنفسنا بالدرجة الأولى ومع العالم الواسع من حولنا كذلك: في ورطة حال المخاض وفقدان اليقينية والبلبلة والحيرة التي تلخص حالنا منذ ذلك التاريخ.

ويتسائل الإنسان مسلماً كان أم مسيحياً عن صفة الدولة على مدى الأربعة قرون وثلث من لحظة ظهور الإسلام؟ ألم تكن الدولة مسلمة؟ ولماذا منذ قيام الدولة العربية الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الأولى الإصرار على ضرورة أن يتضمن دستورها في إحدى مواده أن دين الدولة هو الإسلام؟

أعتقد أن في البحث عن الإجابة على هذا السؤال بعضاً من الرد عليه منذ قيام الدولة العربية الحديثة حيث قامت مسألة الهوية تطالب بإلحاح أن تبرز معالمها وبالذات أن نظام الدولة الإمبراطوري السياسي التقليدي الذي كان مضمونه الاجتماعي نظام الملة قد إنهار ولم يحلّ محله حتى اللحظة ما هو مقنع للإنسان العربي حتى الآن.

جربنا منذ سقوط الدولة العثمانية كل أنواع الحكومات والعقائد الليبرالية والقومية والاشتراكية ودولة الحزب الواحد ودول المشيخات والإمارات والجمهوريات والممالك والسلطانيات وحتى دولة فريدة، الجماهيرية، وكلها تقريباً فشلت في التصدي للتحديات الداخلية والخارجية وجميعها تحطمت إرادتها على صخرة العنصرية الإسرائيلية الصهيونية. وها نحن اليوم في أجواء ما أصبح يسمى بالربيع العربي الذي لا ندري بعد ماذا ستكون نتائجه من الناحية التاريخية. صحيح أنه تم القضاء على بعض الدول الاستبدادية، ولكن هل حلت علينا بركة الديمقراطية؟ أما أنا فأقول سترنا الله من مثل هذه الديمقراطية التي وردت على العراق وليبيا واليمن وتونس وترد اليوم على سوريا ومن الطريقة التي جاءت بها.

كانت هوية الناس معروفة في الإطار السياسي الإمبراطوري للدولة ونظامها الملّي الاجتماعي بحيث لم يكن هناك تضارب بين كون الإنسان من ملة معينة لها بعض من ولائه الاجتماعي من ناحية وولائه السياسي المطلق للخليفة السلطان من ناحية أخرى. وقد سهل استمرار هذا النظام حتى العصر الحديث حقيقة أن مفهوم المواطنة الحديث والذي يزاحم حتى اليوم مفهوم الرعية لم يكن معروفاً بعد. في مثل هذا النظام كانت جميع الملل والنحل تعرف أوزانها ومقاماتها السياسية في المجتمع ومكانتها فيه. ثم تخلخل هذا النظام حين جاء دستور الدولة الحديث ليصرّ على المساواة بين جميع المواطنين بغض النظر عن ملتهم.

فلم تعد الأمور واضحة كما كانت في السابق؛ فهل المساواة التي تصر عليها الدساتير الحديثة تعني حقاً المساواة الكاملة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تلك الهوة ما بين المدون والواقع؟

وسابقاً لم يكن هناك نقاش حول الهوية، سواء كانت هوية الدولة أو هوية الفرد أو الجماعة، في ضوء تراكم وتزاحم الهويات المتعددة للفرد الواحد.

ولسان حال المسيحي العربي يقول أنه يعلم بأن الإسلام دين الدول منذ فجر الإسلام إلى اليوم وأنه تشارك العيش مع المسلم دونما حاجة إلى توصيف الدولة بصفة الإسلام، فذلك الأمر كان بالنسبة له تحصيلاً حاصلاً.

إنني أعتقد أن حدة هجمة الحضارة الغربية علينا قادت إلى حال المخاض الذي مازلنا فيه بحيث ذهب القديم ولم يحل بعده ما هو مقنع؛ فإحدى قدمينا في الماضي والأخرى غير واثقة من نفسها تتحسس الحاضر بريبة وتتوجس من المستقبل في محاولة استشراف آفاقه.

أذكر أنه عندما انتقلنا من القرى والأرياف والبوادي على مدى القرن الماضي لم يقتصر الأمر على مسألة تغيير عنوان سكننا وحسب بل كان للأمر انعكاس على حياتنا وفكرنا والوشائج الاجتماعية وطرق معيشتنا. وكان للانتقال هنا وقعٌ على

الروابط العائلية والقبلية التي كانت معروفة؛ ومع تفككها ذهب المألوف من العادات والتقاليد التي كانت ناظمة لحياتنا. وأجزم الآن أننا لم نتأقلم بعد بما فيه الكفاية مع مجتمعنا الحديث الذي نحن فيه اليوم.

حال التيه والإحباط وضياع المؤشر هذا يفسر إلى حد بعيد تململ الأمة وتعدد اجتهاداتها وفتاويها ويفسر الميل إلى الدين والتدين الذي يبقى الثابت الوحيد في حياة معظم أفرادنا وجماعاتنا في عالم متحرك الرمال في حال من دوام الزلازل وتسارع التغيير والتغيرات.

ماذا بقي من ثوابتنا التي يبدو وكأنها جميعاً أصبحت متغيرات. بعضنا هرب إلى اعتماد نظريات غربية كالقومية والاشتراكية والشيوعية وبعضنا هرب إلى الماضي واغترب فيه وفي سلفه وظن أنه يمتلك الحقيقة كاملة وأن لا حاجة هناك لأن يتعلم شيئاً من عالم اليوم إذ أن بين يديه كل المعرفة وكل الحقيقة.

وإذا ما أضفنا إلى هذا الاختراق الغربي لمجتمعاتنا بكل أشكاله من استعمار واستباحة واحتلال وزرع لاسرائيل وصهيونيتها ومدى الغضب والاحباط والحيرة الذي خلقه هذا الاستعمار لاكتملت الصورة بعض الشيء.

كل هذا يفسر تساؤل مطران عربي عراقي ودموعه تنهمر من عينيه حين قال في احدى ندوات معهدنا في عمان العام الماضي "إن الارض الحبيبه التي نعشقها اصبحت طاردة لنا ولا ندري ماذا نفعل".

إن الحوار هو سبيل التوصل الى رؤية لمستقبلنا؛ حوار اسلامي- اسلامي واسلامي- مسيحي ومسيحي- مسيحي. حوار لا بد وأن تتعدد محاوره في محاولة للتوصل الى رؤية مستقبليه تمكننا من التصالح مع أنفسنا أولاً.

حوار قد يقود الى دفع الاسلاميين الى بلورة برنامج واضح لهم وللمبادئ والعقائد والأديان الأخرى في المنطقة.

لا أظن أن مسيحيا أو غير مسلم واحد يناقش في مسألة الاسلام والدولة أو حتى شعار "الاسلام هو الحل". المطلوب هو تفسيرهذا الشعار وبلورته في برنامج عمل مستقبلي يريح بال غير المسلم والمسلمين كذلك في مسألة الحريات الدينية والسياسية أولاً والحريات الاجتماعية وعلاقتها بحقوق الانسان والمواطنة ثانياً.

إن مثل هذه الرؤية الكلية الجامعة من شأنها أن تقطع دابر النقاش؛ هل الإسلاميون هم المشكله أم أنهم جزء من الحل أو كلّ الحل. المشكلة ليست في الاسلام ولا في الاسلاميين. المطلوب هو العمل على طرح برنامج واضح بحيث يفسح المجال للتعددية التي تريد اسرائيل القضاء عليها وكذا على مسيحيي المشرق ويفسح المجال للجدال بما هو أحسن وأن "لكم دينكم ولي دين" وأن الايمان حقٌ منحه الخالق لعباده لا إكراه فيه. مثل هذه الرؤيا لا بد وأن ترتكز الى أحد أهم أركان الفكر السياسي الاسلامي ألا وهي العدالة التي بدونها لا يمكن أن تكون الحرية حقيقية؛ العدالة التي تعطي طعماً ونكهة وحقاً لحياة الانسان في مجتمعه.

الحاجة إذن أن يقوم الاسلاميون بإعداد خطاب سياسي اجتماعي واضح حيث أننا نعيش جميعاً مسلمين ومسيحيين في زمن غير عادي اختلطت فيه كثرة الاجتهادات والفتاوى والرؤى. مثل هذا البرنامج الإصلاحي التطوري السلميّ لا بد وأن يسعى الى بناء دولة حاضنة للتعددية التي تظهر روعة آيات الخالق وتكون دولة قادرة على إدارة هذه التعددية مرتكزة الى مؤسسات ديمقراطية منتخبة وفاعلة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،